الأغنية الشعبية بين الاستمرار والتغير

الأستاذ الدكتور عبد السلام الفيتوري
أستاذ متعاقد مع جامعة قابس
المغرب

الملخص

تُعدّ الأغنية الشعبية إحدى أبرز التعبيرات الفنية التي تحفظ الذاكرة الجماعية للمجتمع الأمازيغي وتعكس خصوصيته الثقافية والحضارية. فهي سجلّ شفوي زاخر بالرموز والمعاني، ينقل القيم والعادات والتصورات التي شكّلت وجدان الجماعة الأمازيغية عبر التاريخ. غير أنّ التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي عرفتها المنطقة خلال العقود الأخيرة، وما رافقها من انفتاح إعلامي وتطور تكنولوجي، أدّت إلى بروز أنماط غنائية جديدة تمزج بين التراث والحداثة، مما أفرز تحوّلاً في المضمون وفي أساليب الأداء والتلقي.

ورغم هذا التبدّل، ما تزال الأغنية الشعبية تحتفظ بجوهرها. بوصفها فضاءً للتعبير عن الهوية والانتماء، وعن علاقة الإنسان البدوي بأرضه وذاكرته الجماعية. فهي تمثل اليوم مجالاً حيوياً للتفاوض بين الماضي والحاضر، بين الثابت والمتغير، وبين الأصالة والتجديد، بما يضمن استمراريتها في المشهد الثقافي المعاصر.

summary

The folk song is considered one of the most prominent artistic expressions that preserves the collective memory of Amazigh society and reflects its cultural and civilizational specificity. It constitutes a rich oral archive filled with symbols and meanings, conveying the values, customs, and representations that have shaped the consciousness of the Amazigh community throughout history.

However, the social, economic, and political transformations experienced in the region over recent decades—along with increased media openness and technological development—have led to the emergence of new musical forms that blend tradition and modernity. This has resulted in a transformation in both content and modes of performance and reception.

Despite these changes, the folk song continues to retain its essence as a space for expressing identity and belonging, as well as the relationship between the nomadic individual, their land, and their collective memory. Today, it represents a dynamic field of negotiation between past and present, between continuity and change, and between authenticity and innovation, thus ensuring its persistence within the contemporary cultural landscape.

.

المقدمة

إن الذاكرة الشعبية لمختلف الأمم والدول والجماعات البشرية تختزن العديد من المظاهر الثقافية والنفسية والاجتماعية التي تجعل الكائن البشري داخل نسق ما يسمى بالوعي الجمعي، أو الثقافة الشعبية التي تختزنها ذاكرة الإنسان المنتمي لبيئة حضارية معينة. فالتراث الشعبي لأي مجتمع هو الأقدر على تصوير ملامح ذلك المجتمع اجتماعيا وثقافيا، وهو في نفس الوقت إسهام في فهم حركة المجتمع على امتداد التاريخ من خلال رصد ما يطرأ من تغيرات في شتى مناحي حياته، السلبي منها والإيجابي منها على السواء. فهذا الموروث الثقافي هو نتاج تلك الذاكرة التي "تختزن في مدلولاتها صورا عن سلوكيات البشر تجاه ذواتهم وتجاه الآخرين، فالذاكرة الشعبية تقـــوم مقام الرقيب على سلوك الأفراد في استعمالها وتداولها"[1].

والتراث هو ذلك المخزون الواسع الذي يشمل جميع الجوانب المتعلقة بالإنسان سواء أكان ملموسا أم غير ملموس ، والتراث كائن حي يعيش فينا إذ ينعكس صوره على شكل تعابير شعبية تعبر عنها بالرقص والغناء ... في مختلف الاحتفالات الشعبية، لذلك يعتبر التراث مصدرا مهما لدى الكتاب حيث أصبحوا يوظفونه في مختلف دراستهم ويعطونه رموزا حضارية واقتصادية واجتماعية، ويسقطونه على واقعهم المعيشي وألبسوه ثوبا شعبيا بكل ألوانه من غناء ورقص وأمثال وألغاز وقد شكل التراث الشعبي مصدرا للدراسات الحديثة، وتناولته من زوايا متعددة، ويحملها الدارسون مضامين فكرية ومعرفية وعقلية وعقائدية أوسع مما كانت تحمله عن الأقدمين، ذلك ألن التراث ليس مختلفات ثقافة الماضي بقدر ما هو عليه هذه الثقافات من حيث إنه الدين واللغة والأدب والعقل والفن والأعراف، والعادات والقيم.

فهذا التراث الشعبي الغني بتلك الألوان الغنائية والمأثورات الشفوية إنما هو ذلك المخزون الثقافي والمتوارث من قبل الأجداد، والمشتمل على القيم الدينية والتاريخية والحضارية والشعبية، بما فيها من عادات وتقاليد سواء كانت هذه القيم مدونة في التراث أم مبثوثة بين سطورها، أو متوارثة أو مكتسبة بمرور الزمن وبعبارة أكثر وضوحا: "إن التراث هو روح الماضي وروح الحاضر وروح المستقبل بالنسبة للإنسان الذي يحيا، وتموت شخصية وهويته إذا ابتعد عنه"[2] لذلك فهذا التراث الشعبي هو من أهم ما تركه لنا الأجداد إذا، يمثل الإرث الذي يتوارثه الإنسان ليعبر به عن حياته اليومية وتجار به التي تتغذى عن طريق التأثر والتأثير بين الحضارات ليرسم فيه لوحات الفسيفسائية ويلونها بآثاره الشعبية من رقص، وغناء، وحكايات والخرافات، ذات مرجع شعبي بحت له صداه في نفوس تلك الشعوب والأمم.

ولعل كل ما تنتجه الذّاكرة الجماعيّة الشعبيّة وتروّجه من تلك المأثورات الشّفوية، هو بالضرورة تراثٌ شعبي. ولئن ذهب البعض إلى القول أنّ هذا التراث هو من تلك الأمور التي ماتت تماما واندثرت في طيّات النسيان. وباعتبارها قد ارتبطت بالأجداد والزمن الغابر، فهي ثقافة ذلك العصر الذي ولّى بمحاسنه ومساوئه. فإن هذا لا ينفي ان ذلك التراث إنما هو تجسيد لمخيال الجماعة وانعكاس لصورة المجتمع البدوي في أدق تفصيله بالرغم مما يطرأ عليها من تغيرات وتحريفات. "الأغنية قصيدة غنائية ذات لحن معين مجهولة النشأة. عاشت أجيالا طويلة سابقة في الوجدان الشعبي طورت وهذبت خلالها وأُضيفت لها معان جديدة"[3].

والأغنية الشعبيّة وباعتبارها فرعا من فروع التراث الشعبي، تعد مدخلا من المداخل التي ترصد الحياة الشعبيّة للمجتمعات باعتبارها قديمة قدم المجتمع والإنسان نفسه ومؤ طرا تاريخيّا تنطلق منه حضارة أي مجتمع. لذلك كانت بمثابة السجل الذي يسطر تاريخ الأمة بمكوناته المادية واللامادية، ويمكن القول إنّ الأغنية الشعبية، وعلى الرغم من أنها اعتبرت كنوع من الأدب العامي يغلب عليه الكلام

---

[1] احمد ملجم،(إبراهيم): **التراث والشاعر دراسة تطبيقية في تجليات البطل الشعبي**، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع إربد ، الأردن ، الطبعة الأولى،2010،ص22.

[2] البقلوطي (الناصر)، **مقولات من التراث الشعبي**، منشورات تبر الزمان، 2005، ص137.

[3] حجاب، (نمر حسن)، **الأغنية الشعبية في شمال فلسطين**، منشورات رابطة الكتاب الأردنيين ،1983، ص11.

المتصنع ويحوم حول مواضيع مبتذلة جعلته محل ازدراء واحتقار. إلا أنّ هذا لا ينفي أنّ الأغنية الشعبية، وبما تحمله من رموز فأنها كانت تكشف عن تجارب الإنسان مع نفسه، ومع الكون من حوله.

علي الرغم من ذلك إلا أن الأغنية الشعبية اليوم ولئن حظيت باهتمام الباحثين والموسيقيين والمهتمين بالأدب الشعبي إلا أن حضورها اليوم يكاد يقتصر، على الاحتفالات العرضية التي تسعي إلى نفض الغبار على ما تبقي من هذا اللون الغنائي النادر. كما أن هنالك من ذهب إلى إن تراجع هذه الألوان الغنائية في سياقها الاحتفالي، هو عدم إيلاء تلك الأهمية الكافية لهذا اللون الغنائي من المشرفين على التراث عامة ومن لهم اهتمامات بالمأثورات الشفهية. ولعل هذا يظهر جليا خاصة في تلك الاحتفالات الغنائية والممارسات الاحتفالية ذات الطابع الفرجوي والتي تغير فيها حضور الأغنية الشعبية حيث لم تعد تأخذ أشكالا واضحة المعالم.

فما هي مظاهر حضور الأغنية الشعبية اليوم ؟

وهل حافظت الأغنية الشعبية علي اعتبارها لون من ألوان الأدب الشعبي علي طابعها الغنائي والموسيقي البدوي ؟

I. مظاهر حضور الأغنية الشعبية اليوم

إن المتأمل في كل ما يتعلق بالأدب الشعبي اليوم، يدرك أن الأغنية الشعبية تكاد تكون أقل المؤثرات الشعبية تواتر. بل أن الدراسة الميدانية التي قمنا بها أكدت لنا، أن هذا اللون الغنائي النادر صار نحو التلاشي. وذلك مرده لعدة عوامل منها ما هو مرتبط بالسياق، والأمكنة فالأغنية الشعبية يمكن القول إنها كانت شديدة الارتباط بتلك الحياة البدوية. ولعل مظاهر تلك الحياة التي تمتاز بالتلقائية والبساطة والتعامل مع ما توفره الإبل والأغنام، كان له الدور الكبير في صياغة ونشأة هذا اللون الغنائي.

" فالأغنية الشعبية وعلى خلاف الألوان الفنية التراثية الأخرى مثل الأشعار الشعبية والأمثال الشعبية وغيرها من أنماط الأدب الشعبي، لم تأخذ أنماط وإشكال موحدة حيث أدخلت عليها تغيرات وإضافات بما يتماشي مع أشكال العيش البدوية الأمر الذي جعل الأغنية الشعبية اليوم لم تحافظ علي سياقها الاحتفالي[4] إن الأغنية الشعبية اقترنت بسياقات ممارسة، كذلك ارتبطت باحتفالات وممارسات لا تؤدي بمعزل عنها بل أنها ستفقد تلك الدلالات والأبعاد الرمزية.فالأغنية الشعبية البدوية ، وإن بقيت في بعض منها ما زلت تؤدي في الأعراس أو في المناسبات التي تكتسي طابع عائلي أو تلك الاحتفالات الرسمية التي لا تتوفر فيها كل الشروط. أو أنها منقوصة كذلك يمكن القول إن الأغنية الشعبية وان كانت حاضرة فإنها لم تكن ضمن تلك السياق الاحتفالي، وذلك مرده لعدة عوامل في مجتمع أهل البادية فالأغنية الشعبية اليوم ولئن حضرت فإنها لم تحافظ علي ذلك السياق الاحتفالي، أو أخرجت من سياقها أو وقع إدخال تغيرات وتحريفات عليها. فالأغنية الشعبية من الفنون التي تطورت مع تطور الرقص والطقوس، والتي ارتبطت منذ البداية " بعالم العقائد والطقوس، والتي خدمت بالدرجة الأولى إشباع الحاجات الاجتماعية والنفسية والروحية...ولا تتوقف على المواضيع الروحية فحسب بل تمتد إلى المواضيع الدنيوية و المحرمة"[(5)].

كذلك يمكن القول إن حضور الأغنية الشعبية اليوم تأثر بعدة عوامل ولعل أهمها ومنها الانقطاع لفترات طويلة على ترديد هذه الألوان الغنائية الشعبية أو عدم العودة إلي ممارسة هذا الغناء الشعبي في إطاره الاحتفالي.ويمكن القول إن الاغنية الشعبية اليوم، قد اقتصرت مظاهر حضورها على بعض المحولات التي تسعي إلى إبراز هذا اللون الغنائي الاحتفالي والتعريف به وعلي الرغم من ذلك فان الأغنية الشعبية اليوم لم تأخذ شكلا واحد موحد يبرز هوية المجتمع البدوي ويسلط الضوء علي جانبا من تلك الثقافة، فالأغنية الشعبية علي الرغم من تلك المحاولات التي تسعي تثبيت الأغنية الشعبية البدوية في إطار ذلك الشكل الاحتفالي الغنائي الا انها لم تحفظ علي طابعها الأصلي، لذلك أصبح الغناء الشعبي يظهر في سياق احتفالي مغاير، لطبيعة هذه الممارسة الاحتفالية، بل يمكن القول إن جزاء كبيرا من

---

[4] عبد المحسن (محمد حسن)، **الأدب الشعبي في حلب**، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق 1994، ص294

[(5)] الحمديري، (ابراهيم)، **أنتولوجيا الفنون التقليدية**، الطبعة الثالثة، دار اللاذقية، سوريا، 1984، ص332

الأغاني الشعبية اليوم أخرجت من سياقها الاحتفالي، وأخذت هذه الممارسة الغنائية أبعاد سياحية وتجارية، وعلي الرغم من هذا فان الأغنية الشعبية اعتبرت، لونا فنيا فريدا من نوعه وذلك بما يحمله من خصوصية، وقيم فكرية وذلك ما يجعله يتميز عن الأنماط الغنائية الأخرى.

وإن كان هنالك عديد نقاط التشابه خاصة مع عديد الألوان الغنائية الأخرى عند أهل البادية مثل عروض الشعر الشعبي إلا أن الأغنية الشعبية لها خصوصيتها وتنوعها وثرائها في مستوي.الأغراض والألوان الغنائية التي تعكس تلك الخصوصية والفرادة للمجتمع القبلي. فإن الغناء الجماعي كان من أرقي أنواع الموسيقي في اعتقاد اليونان وقد أكسبوا هذا النوع عمق الفلسفة، وتعقيد التركيب وهما الصفتان اللتان أخذتا تجدان لهم مكانا في السمفونية والمقطوعات الموسيقية وكان كل احتفال سواء بحصاد أم بنصر أم بيوم مقدس مكان لجوقة[6] .كذلك يمكن القول إن الأغنية الشعبية اليوم وعلي الرغم من تلك التغيرات والإضافات والأنماط التي ظهرت عليها اليوم إلا أنها لا زالت صوت الشعب من خلالها تستطيع أن ترصد الحالة المعيشية لأنها نابعة من تجربة عميقة وصادقة والأغنية الشعبية عبارة عن رموز تحمل في طياتها معان ودلالات ذات مرجع شعبي، تترجم معاناته وكل تفاصيل الحياة والعادات والتقاليد وهي تصدر من الجماعات، وتتميز بطابع شفوي ريفي بدوي ويعبر عنها الإنسان الشعبي بصدق خالصا وعميق"[7].

إن الأغنية الشعبية اليوم أخذت أشكلا وتمظهرات أفقدتها دورها ووظائفها الاجتماعية والعقائدية وحتى النفسية فاصبحانا نري الأغنية الشعبية تظهر حسب خصوصية كل مجموعة شعبية في مجتمع أهل البادية خاصة في حفلات الزفاف وأصبحت الأغنية الشعبية اليوم يطرح عديد التساؤلات فقد أعيد تناول عديد الأنماط والألوان الغنائية الشعبية، لكن وقع إخراجها من سياقها وبتالي فقدت جزء من وظائفها.

نفسية فاصبحانا نري الأغنية الشعبية تظهر حسب خصوصية كل مجموعة شعبية في مجتمع احتفالات الموقف اليوم لم تحتفظ بتلك الصورة الحية لمجتمع أهل البادية علي اعتبار أن الأغنية الشعبية هي مكون أساسي من مكونات التراث الشعبي يشكل لكل أمة الأصول والذاكرة التي تتضمن مكونات رصيدها ومخزونها التاريخي الإنساني من الفنون والعلوم والآداب، فالموروث الشعبي له فهو يخشى ويخاف من أن تضيع منه الألوان الغنائية الشعبية وبالتالي لا تستطيع هذه العروض المقاومة والصمود في ظل مظاهر العولمة الثقافية التي تقتحم تلك الخصوصية الثقافية للجماعة الشعبية "فالعادات والتقاليد الشعبية كعناصر ثقافية تؤدي وظائف مختلفة بالنسبة للأفراد تقوم في المقام ألأول على تحقيق التكامل والاستقرار الاجتماعي داخل الوسط الشعبي "[8]

كذلك يمكن الإشارة إلي أن الأغنية الشعبية اليوم لم تحتفظ بتلك الصورة الحية لمجتمع أهل البادية علي اعتبار إن الأغنية الشعبية هي مكون أساسي من مكونات التراث الشعبي لكل أمة تتضمن مكونات رصيدها ومخزونها التاريخي الإنساني من الفنون والعلوم والآداب، فالموروث الشعبي له القدرة على صياغة الوجدان والهوية من تشكله في مراحله الأولى وهنا تتحدد على أساسه خصائص وسمات وميزات الثقافات القومية، كذلك يمكن الإشارة أن الأغنية الشعبية في شكلها اليوم هي نتيجة تلك "الذكريات التي هي المصدر الوحيد للمعلومات فهي تنتقل من جيل إلى جيل آخر"[9] وتأخذ أشكلا وصورا مختلفة تتماشي وروح الجماعة الشعبية.

كذلك يمكن القول إن الأغنية الشعبية, التي كانت في بدايتها بمثابة تلك المرآة العاكسة لحياة الشعوب، فيه تنعكس الحقيقة النفسية والاجتماعية والخلقية للمجتمعات، وهو أحد أشكال الإبداع الشعبي الذي لا حصر لها، فهيا وليدة الوسط الذي تنبثق منه، وهو من الجماعة الشعبية ينطقها العامة ويحملونها وثائق فكرية ثقافية حية و متجددة لا تموت، فان هذا لم ينفي إن تحضر الأغنية الشعبية اليوم بأشكال ومظاهر يمكن القول عنها أنها ذهبت في ذلك التوجه الذي يرمي إلي وتقليص مساحات الهوية المحلية لحساب مجتمع وهوية وثقافة عالمية واحدة.

---

[6] عابدين (سامي):**الغناء في قصر الخليفة المأمون وأثره على العصر العباسي**، دار الحرف العربي، مصر، 2004، ص22.

[7] بن سليمان(حسن)، "**المرأة وصورتها في المثل الشعبي التونسي**"، تونس، 2009، ص52

[8] الخطيب، (محمد).:**ألانثروبولوجيا الاجتماعية**، الطبعة الثانية، منشورات دار علاء الدين، لنشر والتوزيع دمشق 2008، ص30

[9] MELIA, J), Laghouat, *les maisons en tourees de jardins*, librairie plon, Paris, 1923, p 210.

وهو ما نلاحظه في أشكال الأغنية الشعبية اليوم والتي أصبحت أكثر انفتحا علي الفنون الأخرى والثقافات المختلفة، فلم تعد الأغنية الشعبية ذلك الجزء الأساسي من كيان الأمة وهمزة وصل بين الأجيال، وموروث الأمة الذي لا تستطيع الأيام إنكاره.، "إن المجتمعات البدوية عامة أقرب في معاشها إلى خصائص الحياة الطبيعة، التي تحافظ على أنماط عيش تتميز بالبساطة وعدم التعقيد وتتبع التقاليد التي تقرها الأعراف المألوفة داخل المجموعات المتجانسة منذ عهود طويلة"[10].

II. تراجع الأغنية الشعبية في إطارها وسياقها الاحتفالي

لئن كانت تعد البداوة من أقدم الأنماط الاجتماعية التي عرفها الإنسان، فعبر البداوة أفتتح الإنسان صلته بالطبيعة ومنها تعرف على بيئته. ولعل بعض مظاهر التأثر بالبداوة وما تحمله من مأثورات مازال قائم في مجتمعنا العربي المعاصر حتى في مدنه وعواصمه. فالإنسان البدوي لا يعرف غير البداوة نمطا للحياة فكانت البداوة بذلك تعتبر أقدم حضارة للإنسان البدوي. ويمكن القول إن البدوي كان يولي اهتماما وإخلاصا كبيرا لقبيلته أو نجعه فالعشيرة هي الوحدة الاجتماعية عند البدو والتي تقوم بتنظيم شؤون أفرادها في مختلف الجوانب.

وهذا ما يؤكد مدي تشبث أهل البادية بممارساتهم، واحتفالاتهم والاعتزاز بقيم المروءة والكرم فهيا من سمات البدوي. وقد كانت وسيلته لتغلب على ضعفه في مواجهة بيئته الصحراوية، ولعل أهل البادية كان لهم اعتقد أن تلك الاحتفالات والأغاني التي يرددونها سوي في أعمالهم وأنشطتهم أو تلك التي تودي في حفلات الزفاف أو الختان من تقاليد وأعراف القبيلة. بل في بعض الأحيان تأخذ منحي عقائدي قدوسي إي أنه من العيب عدم الالتزام بها. بل أنهم يلزم أبنائهم بها فهي تتسم بالرسوخ والثبات، فهي غيرُ قابلة للمحو أو التبديل. كما أن في التزام البدوي إبن العشيرة الكامل بعاداته البدوية وتقاليد عشيرته هي عنوان انتمائه ومعيار ولائه للعشيرة. فإنه يمكن القول إن تلك الممارسات أو الاحتفالات، قد أصبحت من العادات التلقائية التي تحقق الانسجام الثقافي. فهي إذ تـُسهـّلُ لهم الانخراط في الأعراف بيـُسرٍ وسهولة ويمكن القول إن أهل البادية قديما كانُ يحرصون علي، المحافظة على نسق تلك الأغاني الشعبية التي تؤدي في الاحتفالات. وقد تنقلات بين الأفراد من جيل إلى جيل، بل أنهم وصلو إلي حد أنهم يثورون اذا ما تمَّ التعرض لتقاليدهم.

إن المأثورات الشعبية على الرغم من أنها نابعة من أعماق مجتمع، تحكمه الأعراف واللاءات للعشيرة تقدم صورة نادرة عن أدق تفصيلات حياة البادية. على الرغم من ذلك فإن بعض هذه الألوان الغنائية، اليوم ومع تحول المجتمعات والانتقال من الأنماط البدائية تراجعت وانقطعت وغيبت عنها السياقات التي تمارس فيها. ووصلت في بعض الأحيان إلى الامتهان، والاحتقار على الرغم ما تحمله من دلالات رمزية ومعاني. "إن الأغنية الشعبية الممتازة قطعة فنية متكاملة، شأنها في ذلك شأن إي عمل فني أخر يبدعه فنان متميز."[11]

إن الأغاني الشعبية وكما ذكرنا سلفا ورغم أن أهل البادية قديما كان لهم تأكيد وحرص كبيرين، على هذه الألوان الغنائية وترسيخهم لها في أذهان النشأة. والعمل على مطالبة الآخرين بعدم الاستهانة بها فقد كان أيضا يعملون، على حماية هذه التقاليد بإنفاذها وتطبيقها لتصبحَ أعرافاً ثقافيةً تضبطُ السُّلوك وتنظـِّمُ الممارسات. ولكن على الرغم من ذلك فإن ما تعرضت له هذه المجتمعات البدوية من محاولة تفكيك وحدة نسيجها الأمر الذي أفقدها تلك الخصوصية الاجتماعية والسياسية. لذلك يمكن ويمكن القول أيضا إلى أن تراجع، الأغنية الشعبية في سياقها الاحتفالي، أيضا مرتبط أن أهل البادية قديما، كانت الموسيقي والغناء تعد بالنسبة لهم كالمآكل والمشرب والملبس الذي لا يمكن أن يستغنوا عنه. كما يمكن أن نظيف في هذ الإطار، إلى أن الأغنية الشعبية اختلفت حسب المناطق والعروش على وجه الخصوص. ولعل هذا يتأكد لنا من خلال المادة التي قمنا بجمعها، فبعض الأغاني الشعبية تتشابه بدرجة كبيرة ولكنها تختلف في المعاني والمصطلحات المستخدمة. ولعل هذا من بين تلك الأسباب والعوامل التي جعلت من هذا النمط الفني يتراجع، ويصعب تأديته ضمن سياقاته لكثرة أغراضه وتعدد أشكاله.

---

[10] التليلي (محسن)، **الإسلام البدوي، إسلام الطوارق نموذجا**، الطبعة الأولي يناير، 2010، دار الطليعة للطباعة، والنشر بيروت، ص، 21.

[11] مرسي، (احمد علي)، **صون التراث الثقافي غير المادي**، الطبعة الأولي، القاهرة المجلس الاعلي لثقافة، 2013، ص.24

إن الأغنية الشعبية، لم تأخذ شكلا غنائيا واضح المعالم. على الرغم أنها تتميز بطبعها الفني الخاص، وقدرتها على أن تصبح شكلا فنيا جلي المعالم. وبالتالي يمكن أن يصبح هذا اللون الفني قابل أن يمارس في إطار سياقاته وبتالي يؤدي وظيفته المنوطة بعهدته."فهذه الأغاني برغم أنها مرتجلة عادة سواء كنص شعري أو موسيقي، إلا أنه ليس هنالك ما يمنع من أن تأخذ شكلا محددا عن طريق التداول والممارسة وعن طريق الأفراد الموهوبين في كلا الجانبين"[12]

وبالإضافة إلى كل ذلك يمكن أن نشير إلى أن الأغنية الشعبية، من أسباب ترجعها في سياقها الاحتفالي، الجهل بما يحمله هذا اللون الغنائي الذي يصور حياة البادية أصدق تصوير. ويعكس مختلف جوانب تلك الحياة، والتعامل معه وكأنه غنائي احتفالي وهذا بتالي يخرج هذا الغناء الشعبي من سياقه. ويفقده تلك الخصوصية التي يمتاز بها ويساهم في طمسه وتراجعه، ووضعه في سلة الأغاني الشعبية المعتادة على حد السواء،

لقد ساد اعتقاد واسع أن الأغنية الشعبية هي مجرد أغاني احتفالية خالية من الدلالات والمفاهيم، أو أنها لا تعد إلا كونها مجرد كلمات تنظمها النساء ولا يمكن أن ترتقي إلى مستوي الغناء الشعبي. ولئن كان لهذا التصور دعائمه باعتبار أن الأغنية الشعبية، توقفت وتراجعت و لم تعد تأخذ شكلا واضح المعالم منذ أن اقتحمت حركات المدن كل مظاهر حياة البادية. فإن هذا لا ينفي أن الأغنية الشعبية مازالت حاضرة ولو بطريقة محدودة جدا، في بعض المناطق الصحراوية في خاصة من هم كبار السن من النسوة ولعل، تغنيهم بالأغنية الشعبية هنا لا تتعدي كونه مجرد وقوف على الأطلال أو عودة بالذاكرة إلي أزمنة ماضية.

فالأغنية الشعبية كما أشرنا سابقا أنها من تلك الأنماط الشعبية، التي تجمع بين البساطة والتلقائية وكل أشكال الفرح واللهو. وكأنها في ذات الواقع تجاوزت مفهوم التعبير أو الكشف عن تصورات المجتمعات. بل أنها امتزجت بذلك الواقع الذي نظمت فيه. وأصبح المجتمع البدوي القديم، مكونا وعنصر من عناصر الأغنية الشعبية لا يكتمل هذا اللون الغنائي إلا إذا توفرت كل عناصره وأركانه، ولعل مرد استرجاع بعض النساء لهذا النمط الغنائي القديم إنما يدخل في إطار، الحنين لذلك الزمن الذي البعيد الذي غيبت فيه مكانة المرأة. وارتبطت فيه حياتها بالمشاق والاشتياق، ولكن يمكن القول إن الأغاني منها وبها تتجسد كل تلك الصور الجميلة المفرجة للكروب وإن حملت في طيتها صورا قبيحة."وما الأغاني إلا أخلاق، ولغة، وعوائد، وتشخيص، وغنج، وانتخاب وتمثيل أحسن الصور أو أقبحها، في حركاتها ولباسها وأحوالها الجزئية والكلية، ومن هذه الوجهة هي معيار الأذواق، وبرهان الحضارة أو البداوة، ودليل التصورات والخواطر النفسانية، أما من وجهة تأثيرها على النفس، فهي مفرجة الكربات، ومسلية الخواطر، ومجلية الأحزان ومنشطة العزائم، وغذاء الأرواح، ومرآة الصور الجميلة، ومدعاة الائتلاف والتحابب. "[13]

إن الأغاني الشعبية لم يكون ترجعها منحصرا، أو مقتصرا على مستوي السياقات أو مظاهر الاحتفال. أو تلك المؤثثات المكانية أو تراجع الأنشطة والأعمال الفلاحية، بل تراجعها كان في مستوي التعامل مع هذا اللون الغنائي النادر. فقد أصبح عدد يكاد يكون منحصرا في بعض المناطق البدوية من يعرف ويضبط هذه الأنماط الغنائية في إطارها دون خلط أو عدم دراية. ولعل هذا ما عيناه من خلال تلك الدارسة الميدانية التي قمنا بها، فما لاحظنه أن هنالك من يحفظ بعضا من هذا اللون الغنائي ولكن لا يوجد دراية بمعاني هذا الفن ومقاصده. أو في بعض الأحيان تذكر البعض من هذه الأغاني وتنسي أجزاء كبيرة منها. يمكن القول في هذا الإطار إن تراجع الأغنية الشعبية في سياقها الاحتفالي إذا ما تمت مقارنتها بالأنماط الغنائية الأخرى، كان جزاء هام منه أنه لم يحدث ذلك التواصل أو الانتقال بين الأجيال، أو أنه حدث بطريقة لانعكس طبيعة هذا اللون الغنائي.ومرد ذلك كونه يعبر عن تلك الانطباعات النفسية الفردية للمرأة البدوية، أي أنه له طابع خصوصي يجعل من عملية تعميمه، وانتقاله تكتسي غاية من الصعوبة.

---

12 نصار، (حسين): **الشعر الشعبي العربي**، منشورات اقرأ، الطبعة الثانية، 1980، بيروت لبنان، ص 12

13 الرزقي (الصادق)، **الأغاني التونسية**، دار سحر للمعرفة، 2011، ص،15.

كما أن هنالك من ذهب إلى إن تراجع هذه الألوان الغنائية في سياقها الاحتفالي، هو عدم إيلاء تلك الأهمية الكافية لهذا اللون الغنائي من المشرفين على التراث عامة ومن لهم اهتمامات بالمأثورات الشفهية. ولعل هذا يظهر جليا خاصة في تلك الملتقيات أو المهرجانات أو في اهتمامات من يسهرون على جرد وتدوين هذه الأنماط الغنائية.وعلى كل حال ف"إن الأغاني عندنا هي محل الإهمال، وقلة الاعتناء لا تدون ولا تطبع فيها أوراق كما هو الشأن في الأمم الراقية."[14].

إن الأغنية الشعبية كنمط غنائي نادر وعلي الرغم من تراجعها في تلك السياقات، التي أُنشأت فيها. فأنها كان لها الدور الكبير في تحقيق وتكريس نوع من التقاليدٌ الاجتماعية. التي لا تزال تشاهد في مختلف ممارسات أهل البادية. على قلتها كالاحتفال بمكانة الإبل والتغني بخصالها، وذكر مكانة الخيل عند أهل البادية. فالأغنية الشعبية وإن تراجعت في كل مظاهرها وما تشهده من مظاهر نسيان، والاندثار.

فأنها نجحت في ترسيخ كل تلك القيم، الجماعية داخل المجتمع البدوي من إعتزاز الأفراد بتقاليدهم وممارستهم. وتكريس تقاليد وممارسات لعلنا نري تماسكا بها اليوم رغم تفكك وحدة المجتمعات القبلية في الجنوب الشرقي التونسي إلى حدا بعيد. كما كان للأغنية الشعبية الدور الكبير في حفاظ بعض الممارسات والأعمال علي طابعها الجماعي. إلى اليوم رغم تراجع هذا اللون الفني إلي حد كبير ولعل موسم حصاد المحاصيل الزراعية، مازال اليوم يكتسي طابعا جماعيا. على الرغم من أغلب أصحاب هذه الأعمال هم من أهل الأماكن الحضرية والمدن.

كذلك مازال إلى اليوم ، ولو بدرجة أقل بعض من تلك الصور التي جسدتها بعض الأغاني الشعبية فإلى اليوم مازالت الصبايا **يردو** على المواجل، والفسقية لجلب الماء. يمكن القول إن الأغنية الشعبية على الرغم من أنها تراجعت إلى حد كبير كممارسة في إطارها السياقي، وأقتصر حضورها اليوم على البعض من النساء اللواتي يحذقن هذا اللون الغنائي.

وكما يمكن القول، أن الخوف ليس من تراجع هذا اللون الغنائي في سياقه الاحتفالي أو في مستوي حضوره اليوم. بقدر ما هو متأتي من الوصول إلى مرحلة اندثاره دون التمكن من تدوينه والمحافظة عليه والعمل على استمراره.لذلك أن "أهم ما يميز المأثورات الشعبية عامة هو قدرتها على الاستمرار في عملية الخلق، والإبداع مع تتابع الأجيال فيتحول الموروث الثقافي إلى مأثور ثقافي حي في تواصل مستمر وفي إطار من الرئوية العلمية والفنية."[15].

1) الأغنية الشعبية والذاكرة المهددة بالاندثار:

لئن كانت أغلب ومعظم المأثورات والأنماط الفنية الغنائية، تنتقل من الإباء والأجداد إلى أبنائهم عبر تلك الذاكرة الشعبية. التي تقوم بسرد الأحداث ونقلها عن طريق الرواية الشفهية، فيتداولها كل جيل بإضافة أشياء جديدة وحذف أشياء أخري لا تتماشي مع واقع حياته. فإن هذا لا ينفي ضرورة المحافظة على ذلك الإرث وتراث تلك الحضارات التي صنعها الأجداد على مدي أحقاب طويلة من الزمن.

تمر عبر رويتها عن طريق الأجيال، والعمل على إنفذها لدي الأجيال النشأة وتحريضهم عي حمايتها والاعتزاز بها. لذلك كان أهل البادية قديما، يعملون على حفظ ما توارثه من عادات وتقاليد، انطلاقا من ذاكرتهم، باعتبارها الضامنة للحفاظ على صفات الأصالة التي تمثـّـلُ صمـّـَامَ أمان للنسيج الاجتماعي. حيث تـُـعدُّ القبيلةُ بناءً اجتماعيا متماسكاً يحرصُ أفرادها كلـّـُهم على قوتها تعبيراً عن انتماء مطلقٍ وولاءٍ كاملٍ لها. فكل تلك المأثورات الشعبية من أغاني وأساطير وحكايات، هي من نتاج الذاكرة التي من خلالها يتم الحفاظ على

---

14 عبد اللطيف(محمد فهمي). **ألوان من الفن الشعبي**. دار العلم. القاهرة. مصر. 1964 ص97.

15 الحشاش، (عبدالكريم):**عيد، الأسرة في المثل الشعبي الفلسطيني والعربي**، المطبعة العلمية، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى 1988م ض58.

قسم على غاية من الأهمية من حاضرتنا."وهي جزء من ذاكرتنا التي هي وعاء التراث المادي ولا مادي باختلاف جزئياته، وقدي يكتفي حدوث أي إشارة لإثارة كنوز الحافظة وتوارثته الجماعة وأيضا ما تنتجه وما تكتسبه خلال صيرورة تراكمية تمتد عبر الزمن. "[16]

إن المأثورات الشعبية لا تحقق إستمراريتها إلا إذا كانت نابعة من عمق وتاريخ الأمة. وإن ضمان تواصلها ووصلها إلى الأجيال المتعاقبة رهين تموضعها في تلك الذاكرة الجماعية. حيث تتجسد إبداعات الجماعة انطلاقا من تجربة أفرادها."إن التراث الشعبي لا يعبر عن وجدان فردي واحد ولا يكترث بالرئوية الفردية الأحادية، لأنه يزخر بتراث عميق عمق تاريخ الأمة بأكملها فهو ضميرها الحي المعبر عن أفرحها وأحزنها وإبداعها المختلف. ومن هنا تظهر خصائصه الفنية والمضمونية منعكسة على النتائج بحيث تتجلي إبداعات الجماعة من خلال تجاربها الفردية."[17].

ويمكن القول في هذا الإطار إن الذّاكرة الجّمعيّة هي ذلك الجمع الرمزي لذاكرات الأفراد، وهي بذلك تأسيس لهويّة المجتمع وضمان صيرورتها. كما إن عملية التذكر لا يمكن أن تحدث إلا في إطار جماعي، حتى وإن كانت منحصرة داخل الفرد. فهي متمركزة ضمن المجموعة الاجتماعية، كنتيجة بما أن الفرد متفاعل مع محيطه بحكم الصيرورة ويمكن القول في هذا الإطار إن الأغاني الشعبية لئن لم تحافظ على تلك السياقات التي تمارس فيها إلى حدا بعيد بل يمكن القول إن بعض الألوان الغنائية وإن حافظت علي طابعها الاحتفالي فأنها، لم تحافظ على تلك الممارسة المتكاملة. فإن ذلك مرده إن هذه الألوان الغنائية، في جزاء منها تعرضت إلى التحريف والانتقاء.

ولعل ما نلاحظه في أغلب الممارسات الاحتفالية التي تأثث بالأغاني الشعبية والألوان الغنائية فيه تأكيد على ذلك، فأغاني الحصيدة أو بعض أغاني الأعراس وإن مازالت تمارس في سياقها الاحتفالي فأنها بدأت تهددها أشكال النسيان والاندثار. ولعل ذالك مرده إلى أن تعاملنا مع تلك المأثورات التي وصلتنا عن طريق المشافهة، كان إنطاقا من اعتقدنا إن هذه الألوان الغنائية ماتت تماما واندثرت في طيّات النسيان. وباعتبارها قد ارتبطت بالأجداد والزمن الغابر، فهي ثقافة ذلك العصر الذي ولّى بمحاسنه ومساوئه، ولعل هذا التعامل الذي يغلب عليه الإهمال والاستهانة بهذا اللون الغنائي النادر كان له الدور الكبير في تراجع هذه الألوان الغائية وفقدها لوظائفها.

ويمكن القول أيضا وبالإضافة إلي كل ذلك، أن التعامل اليوم مع هذه الألوان الغنائية النادرة يعد عاملا بدوره أساسيا مهددا باندثارها فهذه الأغاني لا يخصص لها الاهتمام الكافي. من ناحية جردها ومحاولة جمعها وتبويبها والكشف عن سياقاتها فحتي محاولات البحث فيها على قلتها بقيت محاولات نسبية فردية. ولا يمكن أن تكتسي طابعا إحيائيا لهذا الموروث الغنائي النادر باعتباره نابع من عمق الثقافة البدوية.

"إن الطابع الجمالي للثقافة البدوية التصاقها بالوجدان الجماعي، لهذه المجموعات فهي قد واكبت الإنسان البدوي في جميع مناسبات حياته وأشبعت غرائزه وحاجاته الثقافية والنفسية ولهذا السبب رسخت في الأذهان وتبنتها الذاكرة الجمعية."[18].

كما يمكن القول أبضا، أن الأغنية الشعبية وبالإضافة إلى ما سبق وأشرنا إليه أنها ذلك الأدب النسائي الذي يحمل ذلك الطابع الأنثوي. بما يحمله في طياته من أسرار، الأمر الذي كان سببا رئيسيا في انغلاق هذا اللون الغنائي على نفسه. وأصبح يكتسه نوع من الغموض وبتالي جعل عملية التعامل مع هذا اللون الغنائي الشعبي يكتسها بعض الحذر في مرحلة أُولي،

ثم يمكن القول إن هذا الحذر تحول تدريجيا إلى تجاهل، أو إقصاء لهذا اللون الغنائي النسائي. ولعل هذا الأمر ذهب البعض لربطه بعدة عوامل منها، منها طبيعة المجتمع الشعبي وكأن الأعراف أو التقاليد الاجتماعية للمجتمع البدوي القديم تعيد نفسها اليوم فنلاحظ، حتي في تعامل أفراد المجتمع البدوي مع بعض الألوان الغنائية الأخرى كأغاني الحماسة ، أو الأغاني المتعلقة بالخيل والإبل ، ومدح القبيلة أو التغني بالعشيرة والنسب نجد إن هذه الألوان مازالت حاضرة بل أنها حافظة علي طبعها الاحتفالي والسياقي إذا ما تمت مقارنتها بالأنماط

---

16 أيوب (عبد الرحمان)، **الذاكرة واللهجات**، سلسلة الفنون والتقاليد الشعبية عدد،12تونس المعهد الوطني لتراث ،1998، ص،9.

17 إبراهيم (نبيلة)، **أشكال التعبير في الأدب الشعبي**، دار نهضة مصر للطبع والنشر، (د.ت) القاهرة مصر العربية ،1981، ص،4.

18 خواجة (أحمد)، **الذاكرة الجماعية والتحولات الاجتماعية من مرآة الأغنية الشعبية نفس، المرجع**، ص98.

الغنائية الأخرى ويمكن القول إن هذه الألوان الغنائية حاملة لتلك الحيوية التراثية ،باعتبارها موريسة من طرف الأجداد مرورا بالإباء إلي الأجيال الحاضرة علي التوالي بخلاف الأغنية الشعبية التي انقطعت فيها عملية التواتر إلي حدا بعيد.

كذلك ايضا في هذا الإطار أيضا أن من تلك الأسباب والعوامل التي جعلت، هذا اللون الغنائي النسائي عرضة لكل أشكال النسيان والاندثار. غياب لمظاهر نقل هذا اللون الفني بين النساء كبار السن والصبايا، إن المتأمل في طبيعة عيش المجتمع ولعل هذا ما تم معينته خلال دراستنا لهذا اللون الغنائي إن في اللاوعي الشعبي كل تلك الأنماط الغنائية الشعبية التي تكون في علاقة بعالم المرأة أنها عادة ما تكون محل ازدراء ولو بصفة نسبية. على الرغم من أن الأغنية الشعبية، تتشكل من خلالها الهوية الثقافية أولا والخصوصية الاجتماعية وهي التي تحدّد النمط السلوكي والثقافي والمعرفي ثانيا. وعلى الرغم من كل ذلك فقد أصبح هذا النمط الغنائي وحتى وإن مازال في جزء منه لم يتغير، إلا أنه أصبح يفقد تلك العلاقة العفوية بين الإنسان البدوي وبيئته ومحيطه وبتالي عزله عن واقعه وإخراجه من سياقاته ودلالاته."كانت الأغنية الشعبية مادة عفوية ناتجة عن تفاعل الإنسان مع الطبيعة، والمحيط وحين تغير هذا المحيط و لم يبق بمقدور هذا الإنسان أن يسيطر سيطرة كلية على بيئته. "[19].

إن الأغنية الشعبية، ولئن كانت حاملة إلى كل معاني البقاء والاستمرار، فهيا جامعة لكل تلك الجوانب أو الموارد الثقافية. سواء الفكرية منها أو المادية التي يتوارثها الفرد في مجتمعه عبر الأجيال إلا أن هذا لم يمنع أن يصبح هذا اللون الغنائي النادر اليوم، بمثابة أناشيد أو قصائد أو ملزومات مدفونة في صدور كبار النساء والعجائز. وهي غائبة بذلك عن بيئتها 'إن وجدة فيها. الآن وتخليت عن وظائفها باعتبارها ممارسة متكاملة، حاملة لعديد العناصر والدلالات الرمزية. كما يمكن أن نظيف في هذا الإطار أن هنالك عدم داريه أو جهل بهذا اللون الشعبي ، فحتي من طرف المهتمين بالشؤون التراثية، لا توجد، دارسات أو بحوث إلا باستثناء بعض الإشارات لهذا اللون الغنائي ضمن دارسات تعني بحياة الجهة عامة.

ولا يوجد توثيق للممارسات أو الإعمال المتعلقة بالأغاني الشعبية، ويمكن القول إن الاغنية الشعبية إضافة إلى كل تلك العوامل التي أتينا على ذكرها، فإن أسباب بقاء هذا النمط الغنائي منعزلا أو مهددا بالاندثار إلا لم نقل إن جزاء منه بدا أيندثر، إلى أنه لم تقع الاستفادة من هذا اللون الغنائي على غرار الأنماط الغنائية الأخرى ولعل ما يعجل باندثار هذا النمط الغنائي، إن الأغاني الشعبية لم يقع فهمها وأدارك أبعادها ودلالاتها الرمزية." ومن هنا نقول إن الاستفادة من الأدب الشعبي العامي، يعتبر أمر غاية في الأهمية لدارسة ومعرفة أحداث اجتماعية وتاريخية تعكس جزاء من سلوكية أسلافنا. "[20].

كما أنه يمكن القول أيضا في هذا الإطار أن ما يجعل، الأغنية الشعبية مهددة بالاندثار ولعل هذا لمسناه خلال الدراسة التي قمنا بها حيث أن النساء اللواتي ذهبنا للاستماع إليهم هنالك من أبدي رفض كبير في الإفصاح عن هذا اللون الغنائي. على الرغم أن هذا اللون الغنائي كان ارتباطه بالنساء كبار السن، ولكن هنالك من رفض البوح بهذا اللون الغنائي فأغلب النساء لم يستسيغوه هذا الأمر ويمكن تفسير هذا لعدة اعتبارات.هو أن هذا اللون الغنائي، في الأعراف أو في تقاليد العشيرة قديما لا يقال إلى الرجال. ظنا منهم أن هذا الفن يفقد تلك الخصوصية على اعتبار أن هذا الفن وجد في فترة أراد أن يثبت وجده في مجتمع ذكوري متسلط على المرأة. وهذا من الأسباب التي جعلت هذا اللون الغنائي، لا يأخذ ذلك الانتشار ولئن ذهب البعض هنا بالدعوة إلي ضرورة تدوين وتوثيق هذا الفن. وجعل هذا اللون الغنائي النادر من فن شفوي أو ممارسة شفوية وتحويلها إلي فن مكتوب فإنه وإن يساهم، في حمايته من الاندثار فإن هنالك من يري إن تدوين هذا الفن وتحويله إلى نمط مكتوب، يفقده تلك الخصوصية ويمثل بمثابة الاعتداء وتحريف هذا اللون الغنائي النسائي."إن تحويل

---

19 خواجة (أحمد)، **الذاكرة الشعبية والتحولات الاجتماعية، من مرآة الأغنية الشعبية نفس المرجع**، ص،132.

20 شبر (ماجد)، **الأدب الشعبي العراقي**، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية دمشق، الطبعة الاولي 1995، دار كوفان لنشر، توزيع دار الكنوز الأدبية بيروت لبنان، ص 11

الشفوي إلى مكتوب هو أمانة له واعتداء عليه هذا الاعتداء الذي يمار على الشفوي، بتحويله إلى مكتوب هو أشبه ما يكون بالاعتداء الذي يمكن أن يمارس ضد عصفور طليق يقبض عليه ولكن ذلك قدره إذا أردنا أن ندرسه ونزيل عنه الغبار ونعيد إليه الاعتبار."[21].

إن الأغنية الشعبية لئن ظلت لسنوات، غريبة عن موطنها ومكان نشأتها ومعزولة عن واقعها وإضافة إلى تعرضها إلى الاندثار التدريجي، وبعض أشكال المسخ والتشويه والتهجين لعدة إلا ان هذا لا ينفي إن الأغنية الشعبية ، ظلت صامدة، وبقيت في أذهان، نظيميها، وعلى الرغم مما تعانيه هذه الأغاني من نسيان وغياب فأنها لم تنسي من تلك الذاكرة الجماعية للمرأة البدوية. ويمكن القول هنا أن الأغنية الشعبية وباعتبارها لون غنائي شعبي، تميز واختلفت على الأغاني الشعبية المعروفة فإنه يتعرض لتهميش من خلال تطويقه بالأحكام المسبقة والمسقطة.

فالأغنية الشعبية كان لها دور اجتماعي وثقافي، على الرغم من أنها اليوم أقتصر وجودها في باب المأثورات الشعبية في مستوي الذكر والإشارة إليها. في بعض الدارسات أو الأعمال التي تعني بالآداب الشعبية عامة. ولكن يمكن القول أجملا إن هذا اللون الغنائي، بدأ محل اهتمام عديد المهتمين بالشأن التراثي والدارسين لكل أشكال التعبير الشفوي. الأمر الذي من شانه أن ينفض الغبار على هذا اللون الغنائي النادر ويمنعه من التلاشي والاندثار ويساهم في نشأته، وبذلك يتحقق ذلك البعد الوظيفي لهذا اللون الغنائي.

إن تراجع الأغنية الشعبية، ولئن أعتبره البعض أنه نابع من هذا اللون الغنائي نفسه الذي اتسم بأنه إقتصر إلى حدا ما على جوانب عديدة من حياة المرأة في البادية، فإن هذا لا ينفي أن هذا اللون الغنائي، كان متميزا عن الأنماط الغنائية الشعبية، وقد أعاد صياغة مفاهيم جديد للأغنية الشعبية البدوية. ،"إن الشعر الشعبي بقدر ما يتسم بالمحلية في أوزانه وأشكاله، ومحتواه بقدر ما تتميز الأجناس السردية في الأدب الشعبي بطابع عالمي إصطلاحي فالسيرة والأسطورة والحكاية الخرافية أشكال ثابتة وقارة في ثقافات كل الشعوب."[22].

الخاتمة

قد شكّلت الأغنية الشعبية، رغم ما تعانيه من تهميشٍ ونسيان، إحدى الركائز الأساسية في حفظ الذاكرة الجماعية للأمة وصون ماضيها. فهي لم تكن مجرّد وسيلة ترفيه، بل وثيقة حيّة تحفظ تفاصيل الحياة اليومية لأهل البادية، وتكشف عن أنماط عيشهم وقيمهم ومشاعرهم في فترات زمنية لم تُوثّقها كتب التاريخ الرسمية. ومن خلالها أمكننا التعرف إلى تلك الجوانب الخفية من حياة المجتمع البدوي، التي غالبًا ما ظلّت خارج دائرة الاهتمام الأكاديمي أو التاريخي.

كما مكّنت الأغنية الشعبية الأجيال اللاحقة من التواصل مع جزء أصيل من تراثها، إذ كانت في زمنها المادة الفنية الوحيدة المتاحة لجميع الفئات الاجتماعية على اختلافها. أما على صعيد المرأة البدوية، فقد أتاحت لنا هذه الأغاني الاطلاع على عوالمها الداخلية وما تختزنه من عواطف إنسانية رقيقة، من حبٍّ وعشقٍ وحنينٍ إلى الفارس أو الحبيب.لقد ساهمت الأغنية الشعبية بذلك في تجاوز الصورة النمطية للمرأة في المجتمع البدوي، كاشفةً عن أبعادها الإنسانية والثقافية العميقة، ومقدّمةً رؤية فنية جريئة لواقعها، بل وغوصًا في المسكوت عنه من محرمات وتقاليد اجتماعية. وهكذا تظل الأغنية الشعبية سجلًّا رمزيًّا نابضًا بالحياة، يعكس روح المجتمع وتحوّلاته، ويحفظ ذاكرته الجماعية للأجيال القادمة.ولعل أهمية الأغنية الشعبية تكمن أيضًا في قدرتها على الربط بين الماضي والحاضر، فهي جسر ثقافي ينقل القيم والعواطف والرموز من جيل إلى آخر. كما تمثل مادة غنية للباحثين في مجالات التاريخ والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، لما تحمله من شواهد لغوية وثقافية تعبّر عن هوية المجتمع المحلي. ومن ثمّ فإن دراسة الأغنية الشعبية ليست مجرد استعادة لتراث شفوي، بل هي استحضار لوعي جماعي يعيد قراءة ذاته عبر الفن الشعبي. إنّها بعبارة أخرى مرآة للروح الجماعية، وذاكرة للهوية الثقافية في بعدها الإنساني العميق.

---

21 الجويلي (محمد)، **أنثروبولوجيا الحكاية**، دارسة إنتربولوجية في حكايات شعبية تونسية، تقديم الأستاذ توفيق بكار 2002، ص64.

22 (22)Bolokavaski, *The Common, Habits* (EDS), new view, London, 1985.P214

المصادر والمراجع:

- التليلي (محسن)، **الإسلام البدوي، إسلام الطوارق نموذجا**، الطبعة الأولي يناير، 2010، دار الطليعة للطباعة، والنشر بيروت،
- إبراهيم (نبيلة)، **أشكال التعبير في الأدب الشعبي**، دار نهضة مصر للطبع والنشر، (د.ت) القاهرة مصر العربية ،1981،
- احمد ملجم،(إبراهيم): **التراث والشاعر دراسة تطبيقية في تجليات البطل الشعبي**، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع إربد ، الأردن ، الطبعة الأولي،2010 ،
- أيوب (عبد الرحمان)، **الذاكرة واللهجات**، سلسلة الفنون والتقاليد الشعبية عدد،12تونس المعهد الوطني لتراث ،1998،
- البقلوطي (الناصر)، **مقولات من التراث الشعبي**، منشورات تبر الزمان، 2005،
- بن سليمان(حسن)، "**المرأة وصورتها في المثل الشعبي التونسي**"، تونس، 2009،
- الجويلي (محمد)، **أنثروبولوجيا الحكاية**، دارسة إنتربولوجية في حكايات شعبية تونسية، تقديم الأستاذ توفيق بكار 2002،
- حجاب، (نمر حسن)، **الأغنية الشعبية في شمال فلسطين**، منشورات رابطة الكتاب الأردنيين ،1983،
- الحشاش، (عبدالكريم):**عيد، الأسرة في المثل الشعبي الفلسطيني والعربي**، المطبعة العلمية، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى 1988م
- الحمديري، (ابراهيم)، **أنتولوجيا الفنون التقليدية**، الطبعة الثالثة، دار اللاذقية، سوريا، 1984،
- الخطيب، (محمد).:**ألانثروبولوجيا الاجتماعية**، الطبعة الثانية، منشورات دار علاء الدين، لنشر والتوزيع دمشق 2008،
- خواجة (أحمد)، **الذاكرة الجماعية والتحولات الاجتماعية من مرآة الأغنية الشعبية**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس 22-.منشو رات البحر الأبيض المتوسّط،1998
- الرزقي، (الصادق)، الأغاني التونسية، دار سحر لنشر تونس،2011
- شبر (ماجد)، **الأدب الشعبي العراقي**، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية دمشق، الطبعة الأولي 1995، دار كوفان لنشر، توزيع دار الكنوز الأدبية بيروت لبنان،
- عابدين (سامي):**الغناء في قصر الخليفة المأمون وأثره على العصر العباسي**، دار الحرف العربي، مصر، 2004،
- عبد اللطيف(محمد فهمي). **ألوان من الفن الشعبي**. دار العلم. القاهرة. مصر. 1964
- عبد المحسن (محمد حسن)، **الأدب الشعبي في حلب**، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق 1994،
- مرسي، (احمد علي)، **صون التراث الثقافي غير المادي**، الطبعة الأولي، القاهرة المجلس الاعلي لثقافة، 2013،
- نصار، (حسين): **الشعر الشعبي العربي**، منشورات اقرأ، الطبعة الثانية، 1980، بيروت لبنان

قائمة المصادر والمراجع باللغات الأجنبية

- MELIA, (J), Laghouat, les maisons en tourees de jardins, librairie plon, Paris, 1923
- Bolokavaski, The Common, Habits (EDS), new view, London, 1985.